(١٥)

لا أخاف الاغتيال، بل أتمنى الشهادة[١]

● **الخطبة الأولى:**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

ملاحقة أمريكا لمخالفيها:

بعد خطبة الجمعة الماضية لقينى عدد من إخوانى وتلاميذى، وقالوا لى: لقد بينت الأمور فى خطبتك، وشفيت الصدور، وأثرت الشجون، وأبكيت العيون، ولكنا بعد هذه الخطبة أصبحنا نخاف عليك.

قلت: ممن تخافون على؟

قالوا: نخاف عليك من الأمريكان، فإن ذراعهم طويلة، وإنهم يستطيعون أن ينالوا خصومهم فى أى مكان. قلت لهم: وهل هذه أول خطبة من نوعها؟ قالوا: لا. ليست أول خطبة، ولكن الوطيس الآن حام، والماء فى درجة الغليان، وربما لم يصبر عليك القوم كما صبروا عليك من قبل. أما علمت القانون الذى صدر فى الكونجرس.. القانون الذى يجعل من حق أمريكا فى أى مكان وفى أى بلد أن تلاحق كل من تعتبره أمريكا عدوا لها أو خطراً عليها، تلاحقه باستخباراتها تخطفه.. تعتقله.. تغتاله بأى وسيلة من الوسائل، لا تتقيد بقانون ولا بأخلاق ولا بأى اعتبار من الاعتبارات؟ ألم تقرأ هذا القانون؟

قلت لهم: بلى، قرأته وعرفته، وعرفت بهذا أن أمريكا أصبحت أعظم (بلطجى) فى العالم! لأنها تقتل الناس وتغتالهم بدون عريضة اتهام، ولا محاكمة، ولا دفاع ولا قضاء، وهى التى تزعم أنها تقاتل من أجل حقوق الإنسان، وحرية الإنسان، وحرمات الإنسان. وهى تقتل الناس بمجرد رأى رأته

---

(١) ألقيت فى جامع عمر بن الخطاب بالدوحة فى ١١ محرم ١٤٢٤هـ الموافق ١٤ مارس ٢٠٠٣م.

استخباراتها، دون أن تسمع دفاع الآخرين وأن تعرف ما ذنبهم. هذه أكبر بلطجة فى العالم.

وقد نفذت هذا فى اليمن وضربت بالصواريخ أناساً فى صحراء اليمن. ولها سوابق فى هذا فى أنحاء العالم.

قلت لهم: أعرف هذا. ومع هذا كله، ومع أنى أعرف طول ذراع أمريكا وسوابقها فى اغتيال خصومها فى القارات الخمس، وسوابقها الحديثة والقديمة، مع هذا فإنى لا أخاف أمريكا.

أسباب عدم خوفى من أمريكا:

لا أخاف أمريكا لأسباب ثلاثة:

١ - أمريكا ليست إلهاً:

السبب الأول: أن أمريكا ليست إلهًا. وهى تريد أن تتأله فى الأرض، ولكنها ليست إلهاً، تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد، ولا راد لقضائها، ولا معقب لحكمها. ليست أمريكا إذا قالت للشىء: كُنْ فيكون.

أمريكا بشر من البشر ومخلوق من مخاليق الله، لو سلط الله عليها بعض الزلازل، أو الأعاصير، أو الفيضانات لا تستطيع أن تفعل شيئا.

هذا هو السبب الأول.

٢ - إيمانى بالقدر:

السبب الثانى: أننا نحن المسلمين نؤمن بشىء اسمه (القدر). هذا القدر هو الذى يتحكم فى هذا الكون، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

الله تعالى علم رسوله ليعلمنا فقال: ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [التوبة: ٥١] ﴿ . .**قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ** . . ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. هذا ما نؤمن به.

علم النبى ﷺ ابن عمه عبد الله بن عباس وهو غلام، قال له: « يا غلام،

إنى أعلمك كلمات – وكان من هذه الكلمات –: واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك. وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفّت الصحف »(١).

لا نخاف، أعمارنا محدودة، آجالنا محتمة، أرزاقنا مقسمة، لا يستطيع أحد أن ينقص من رزقك درهماً ولا لقمة، ولا يستطيع أحد أن ينقص من أجلك يوماً ولا ساعة ولا دقيقة ولا لحظة ﴿ .. **فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ [النحل: ٦١].

كان على بن أبى طالب رضى الله عنه يخوض المعارك وهو ينشد:

أى يومَىَّ من الموت أفر يوم لا يُقدر أم يوم قُدر

يوم لا يُقدر لا أحذره ومن المقدور لا يُنجى الحذر

إذا كان قُدر على فلا ينجنى منه شيء. ولذلك إذا لم يُقدَّر على فلماذا أخاف؟

هذا هو شأن المؤمنين.

٣ – لا أخاف الموت شهيداً:

السبب الثالث: أن أقصى ما تستطيعه الاستخبارات الأمريكية وحلفاؤها من الموساد، أو الموساد وحلفاؤه من الأمريكان، أقصى ما يستطيعونه وقد هددوا به من قبل أن يغتالونى. هذا هو أقصى ما يستطيعونه.

وهل هذا يخيف؟ فوالله هذا الاغتيال لا يقلقنى، ولا يخيفنى، ولا يحرك فىّ شعرة واحدة.

إن هذا الأمر لو حدث فقد حققوا لى أمنية طالما دعوت الله بها فى

---

(١) رواه الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال: حديث حسن صحيح. وذكره الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٥٧). وأوله: كنت خلف النبى ﷺ يوماً فقال: « يا غلام، إنى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن الله ». وهو الحديث التاسع عشر من أحاديث الأربعين النووية، وقد أفاض ابن رجب فى شرحه فى (جامع العلوم والحكم).

سجودى، ودعوته بها فى الأسحار، أن يجعل ختام حياتي شهادة فى سبيله وابتغاء مرضاته، تكون ختاماً لحياتى، وكفارة لسيئاتى، وثقلاً فى ميزانى.

وهل هناك كسب أعظم من أن يعيش الإنسان داعية ويموت شهيداً؟

وهل أنا أعزّ وأغلى من الشهداء الذين نسمع عنهم كل يوم يسقطون فى سبيل الله برصاص الإسرائيليين؟ كل يوم، وكل نشرة أخبار نسمع بشهداء جُدُد. اليوم خمسة شهداء سقطوا برصاص الإسرائيليين. كل يوم نسمع بهؤلاء الشهداء، هل أنا أعزّ من هؤلاء وأغلى من هؤلاء؟ هل أنا أغلى من يحيى عياش، وفتحى الشقاقى، وأبو على مصطفى، وصلاح شحادة، والمقادمة وغيرهم؟

وهل أنا أغلى من الشهداء الذين سقطوا فى سبيل الإسلام: حسن البنا، وسيّد قطب، ومنكل اكسو، وأحمدو بيللو، وفيصل بن عبد العزيز، وعبد الله عزّام؟

قوافل الشهداء لازالت مستمرة، ويجب أن تستمر قوافل الشهداء.

لماذا نضن بأنفسنا أن نسقط صرعى فى سبيل الله؟

لا يخيفنى والله هذا أبدا.

الإمام البنا وأمنية الشهادة:

لقد استمعت منذ ما يقرب من ستين عاماً - وأنا طالب فى معهد طنطا - إلى الشيخ حسن البنا رحمه الله وهو يخطب فى ألوف قد احتشدت، فى مؤتمر وطنى من أجل مقاومة الاحتلال الإنجليزى وطرد الإنجليز من مصر والسودان، وكان الشيخ يُعبىء الجماهير ويحرّض الحاضرين ويقول لهم: إنى كنت فى شبابى أتلو بعض الأوراد.. الأدعية، وكان من هذه الأدعية دعاء يقول: اللهم ارزقنى الحياة الحسنة والموتة الحسنة. ما هى الموتة الحسنة أيها الإخوان؟

يقول الشيخ: أتظنون الموتة الحسنة أن يموت الإنسان على فراشه الوثير بين أهله وأولاده وأحبابه؟

أهذه الموتة الحسنة؟ كل الناس يموتون هكذا؟ الموتة الحسنة: أن يفصل هذا الرأس عن هذا الجسد فى سبيل الله. ضجت الجماهير وكبرت.

وماذا جرى؟ لقد ختم الله لهذا الرجل بأمنيته التى تمناها، وحقق له دعاءه الذى دعا به.

وأنا أسأل الله: أن يلحقنى بشيخى شهيداً فى سبيل الله.

لا أخاف الموت أيها الإخوة، وماذا بقى من عمرى حتى أضن به أو أحرص عليه؟

لا أخاف التضييق على فى الرزق:

قال صحبى: ربما ضيقوا عليك فى رزقك، ربما صادروا مالك. قلت لهم: وهذا أيضا لا يخيفنى والله. وأنا معظم أموالى ومدخراتى كانت فى بنك التقوى وقد صادروه باعتباره مؤسسة إرهابية، وباعتبار أصحابه من الإرهابيين، بدعوى أنهم يساعدون حماس!

وما بقى من مالى حتى لو صادروه، أنا والله لم أنشأ فى الحلية والنعيم، ولست ممن ولد وفى فمه ملعقة من ذهب. أنا ولدت فى بيئة فقيرة.. أكلت (المش بدوده).. نمت على الحصير.. أكلت (الفرافيت)، أستطيع أن أعيش على الخبز والملح إذا كان ذلك فى سبيل الله. وأنا هنا أتمثل بقول الإمام الشافعى:

أنا إن عشت لست أعدم قوتا وإذا متّ لست أعدم قبرا

همتى همة الملوك ونفسى نفس حرّ ترى المذلّة كفرا

شغلونا عن القدس:

أيها الإخوة:

لقد شغلنا هؤلاء القوم، وشغلوا العالم كله معنا بقضية العراق، وضرب العراق، والعدوان على العراق. كما شغلوا العالم قبل ذلك مدّة بتنظيم القاعدة، وقادة القاعدة، وابن لادن والظواهرى. وفى كل يوم يفكرون فى جديد ويشغلون العالم بقضية بعد قضية.

شغلونا بهذا كله عن المأساة الكبرى التى تحدث أمام أعيننا فى كل يوم.. عن قضية القضايا.. عن أم القضايا.. عن قضية المسلمين الأولى.. عن المسجد

الأقصى.. عن أرض الإسراء والمعراج، وما يحدث فيها صباح مساء من أعمال تقشعر لها الأبدان وتشيب من هولها الولدان.

كل يوم.. كل نشرة أخبار نسمع من الأحداث ما يمزق القلوب حسرات، ما يصعد النفوس زفرات، ما تذرف العيون معه العبرات والعبرات. ولكن تبلدت المشاعر، ماتت القلوب، من كثرة ما تراه فى كل يوم. كأن هذه الأشياء لم تعد تحرك ساكناً.. لم تعد تنبه غافلا.. لم تعد عين تذرف دمعا.. لم يعد قلب يصعد زفرة، مما يجرى فى أرض فلسطين.

لقد قلت لكم فى الجمعة الماضية: إننى أحسّ كلما دمروا صاروخاً من صواريخ الصمود فى العراق أن ضلعاً من ضلوعى يتكسر. وأنا أقول اليوم: كلما سمعت أو قرأت أو شاهدت شجرة من شجر الزيتون تُقطع كأنما قطعوا شرياناً أو عرقاً من عروقى. كلما أحرقوا أو دمروا منزلاً من منازل إخواننا فى فلسطين كأنما أحرقوا قلبى ومهجتى. كلما أطلقوا رصاصة تقتل طفلاً أو شاباً أو امرأةً أو شيخاً كأنما هذه الرصاصة تخنرق صدرى.

البلادة أصابت المسلمين فى مشاعرهم:

أين المشاعر؟ أين العواطف؟ أين القلوب الحية؟ لماذا يقابل الناس هذا بالهمود.. بالجفاف.. بالموت.. بموت القلوب وهو شر موت؟ أين أمة العرب؟ أين أمة الإسلام؟

ثلاثمائة مليون من العرب يرون ما يحدث يومياً، ولكنهم لا يفعلون شيئاً، كأن الأمر لا يعنيهم. إخوانهم يُقتلون ويُذبحون يوميا. كانوا من قبل كل عدة أشهر يدمرون منزلاً لأحد الشهداء – وهذا أمر ما عرفناه فى أى قانون ولا فى أى خلق أن يُعاقب أسرة الرجل بما يجنى، كل قوانين الأرض وشرائع السماء تقول: إن المسؤولية فردية ﴿**كُلُّ نفْسٍ بِما كَسبتْ رهِينَةٌ**﴾ [المدثر: ٣٨] و﴿**ولا تزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**..﴾ [فاطر: ١٨]، ما ذنب أسرتى أن تعاقبها وتدمر منزلها؟ أتعرفون ما معنى تدمير المنزل؟ إنهم يُخرجون أصحابه فى دقائق ثم يدمرون المنزل ويجعلونه أنقاضاً ويسوونه بالأرض، كل ما فيه من أثاث وكل ما فيه من متاع

وكل ما فيه من مدخرات وكل ما فيه من ملابس، كل هذا يُدمر فى لحظات، وتبقى هذه العائلة فى العراء.. لا تجد مأوى.. مشردة.. أصبحت أبناء سبيل.

أى قانون فى الدنيا يجيز هذا؟ - كان هذا يحدث فى الزمن الماضى كل مدة.. كل أشهر، الآن يكاد يحصل كل يوم أو كل عدة أيام، يدمرون منزلاً.. يدمرون خمسة منازل.. يدمرون عشرة منازل.. يدمرون بضعة عشر منزلاً! أصبحت عقوبة حد لإسرائيل.

إسرائيل تفعل ما تشاء فى غيبة العالم وانشغال العالم وانشغال العرب بأنفسهم، كلٌ يقول: نفسى نفسى.

أين أمتنا العربية والإسلامية:

أين العروبة التى يزعمونها؟ أين جامعة الدول العربية؟ أين الدفاع المشترك؟ أين الغيرة؟

أعجب والله، العرب فى سنة (١٩٤٨م) بعثوا بجيوشهم، كانت الجامعة العربية سبع دول، فبعثوا بجيوش سبعة، وكانت جامعة الدول العربية وليدة لها ثلاث سنوات فقط. الآن جامعة الدول العربية وقد صارت أكثر من عشرين، وصار لها أكثر من نصف قرن، لم تفعل شيئا.

يقف العرب صامتين.. جامدين.. مشلولين.. مكتوفى الأيدى، وإخوانهم يجرى عليهم هذا، هذا عجب.

أين أمة العرب؟ أين أمة الإسلام؟ أين أمة القرآن؟ أين أمة محمد عليه الصلاة والسلام؟ هذه الأمة التى تحركت يوم أُحرق المسجد الأقصى - أو أُحرق جزء من المسجد الأقصى، أو أحرق منبر المسجد الأقصى - وحركت القادة لأول مرة فاجتمعوا وأقاموا منظمة المؤتمر الإسلامى.

أين منظمة المؤتمر الإسلامى؟ أين موقفها؟ أين موقف هذه الدول السبع والخمسين أو الأكثر؟ ألا تستطيع أن تفعل شيئا؟ لماذا تسكت هذه الأمة؟

فتوى الأزهر لنجدة العراق:

لقد أصدر مجمع البحوث فى الأزهر فتوى تطالب المسلمين أن يهبوا

لنجدة العراق، وأن يجاهدوا لنصرة العراق وإنقاذ العراق. إذا غُزى العراق وجب على المسلمين فى أنحاء العالم أن يهبوا لنجدة إخوانهم ويجاهدوا من أجلهم، لأن المسلمين أمة واحدة، يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم.

نحيى الأزهر على هذه الفتوى، وهذا هو المرجو منه، وهذا هو المُتوقع منه.

ولكن كنا نود أن يصدر فتوى أخرى: بأن على المسلمين فى أنحاء العالم أن يجاهدوا من أجل إنقاذ المسجد الأقصى الأسير فى يد الصهاينة.. من أجل إنقاذ أرض الإسراء والمعراج، على المسلمين فى أنحاء العالم أن يهبوا لنجدة إخوانهم.

هذا هو واجب المسلمين. لا يجوز لأمة الإسلام أن تتخلى عن إخوانهم وهم يرونهم كل يوم يُقتلون ويُذبحون.

وليس التقتيل والتذبيح فقط أيها الإخوة، الهوان يجرى على الإخوة الفلسطينيين.

تعرض الفلسطينيين للتعذيب والهوان:

كتب أخونا الكاتب الإسلامى المعروف الأستاذ فهمى هويدى منذ فترة قريبة مقالة عنوانها: المسكوت عنه فى فلسطين. وقص أحداثاً غريبة وعجيبة مما يفعله الجنود الإسرائيليون لإخواننا الفلسطينيين، خصوصاً عند الحواجز: كم يطلبون من الشيوخ أن ينتفوا لحاهم! كم يطلبون من شيخ كبير أن يرقص أمامهم! وإذا لم يفعل انهالوا عليه بالضرب المبرح!

وهذا ما أمرهم به قادتهم. قالوا هذا فى التلفزيون الإسرائيلى وأذيع: أن قادتهم أمروا بهذا.

وكلما دخلوا بيتاً ليفتشوه ضربوا أهله. وكم تعرضت النساء الفلسطينيات والبنات الفلسطينيات للهوان ومحاولة اغتصابهن، وهن يحاولن وقد يُقتلن فى سبيل هذا ولا يفرطن فى عرضهن.

وهناك عندهم شىء اسمه: التعذيب بالقرعة! عند الحواجز يوجد جندى إسرائيلى معه مثل الدلو ملىء بورق، يقول للشخص: اختر لك ورقة من هذه

الأوراق، فيختار ورقة، ورقة تقول: يُضرب فوق رأسه حتى يسقط، ورقة تقول: يُكسر أصبعه الخنصر، ورقة تقول: تُقطع يده، ورقة تقول: يُكسر ذراعه، ورقة تقول تُقطع يداه ورجلاه، وقد حدث هذا. واحد كان حظه فى هذا اليانصيب: أن تقطع يداه ورجلاه، فضربوه ضرباً مبرحاً، وبعد ذلك أمسكوا بذراعه وخلعوه، فعرف الرجل القضية فأغمى عليه، ولم يستيقظ إلا بعد أن نُقل إلى إحدى المستشفيات، نقله بعض الفلسطينيين.

ما يجرى عند الحواجز أيها الإخوة شيءٌ لا يُصدق.

أين أمة العرب؟ أين أمة الإسلام؟ إنه العجز العربى، إنه الوهن الإسلامى، إنه الغياب العالمى.

أين العالم.. العالم المتمدين.. عالم الحضارة.. عالم القرن الحادى والعشرين الذى غزا الفضاء وحطم الذرة وصنع الكمبيوتر؟ أين هذا العالم الذى تقدم علمياً وتأخر أخلاقياً؟ أين الحضارة التى أفلست فى الجانب الروحى والجانب الخلقى وتعاملت مع القضايا بمعايير مزدوجة، تحل هذا عاماً وتحرم هذا عاماً، وتوجب أشياء لأناس وأشياء أخرى لأناس آخرين؟ هؤلاء المطففون ﴿ **الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ** ﴾ [المطففين: ٢، ٣]. أين عالم الحضارة؟ أين هذا العالم؟

لقد قامت منذ شهرين مسيرة فى روما فيها أكثر من ألف شخص، هذه المسيرة تنادى بحفظ كرامة القطط وحرمة القطط!! فى روما قالوا إن فيها أكثر من مائة وخمسين ألف قطة شاردة ليس لها مأوى، وهذه القطط تشعر بالبرد أيام الشتاء، فغار هؤلاء على القطط وأقاموا هذه المسيرة وسيروا هذه المسيرة يطالبون بحق القطط فى الحياة!

من يوقف طغيان شارون؟

ألا توجد مسيرة أيها العالم المتحضر تنادى بحق الفلسطينيين فى الحياة.. فى الكرامة.. فى الحرية؟!

القطط والكلاب فى الغرب تنعم برغد العيش، وتتمتع حيثما تريد، والإنسان

الفلسطينى لا يجد شيئاً من هذا! وإذا دافع يوماً عن نفسه أمام الجبروت الصهيونى.. أمام الطغيان الشارونى.. أمام المجازر اليومية التى يتعرض لها من الترسانة الهائلة التى تملكها إسرائيل: الدبابات من تحت، والمروحيات من فوق، والصواريخ من كل جانب، تضرب وتُقتِّل وتُذبِّح وتُدمِّر وتُهدِّم، والعالم لا يقول شيئا! أين صوتك أيها العالم المتحضر؟

هناك عجز عربى، هناك وهن إسلامى، هناك غياب عالمى، وهناك طغيان صهيونى، طغيان لا يقف عند حد. أنا والله لا أستطيع أن أقول طغيان وحشى، الوحوش تقتل من تقتل من أجل أن تأكل، الأسد حينما يغتال فريسته إنما يريد أن يشبع بطنه، لا يريد الاعتداء على أحد، فإذا أشبع بطنه ترك فريسته ولم يعتد على أحد، إنه يريد أن يأكل ومن حقه أن يأكل وهذه الفريسة هى طعامه. أما هؤلاء فهم يتلذذون بقتل البشر.. بسفك الدماء.. بإزهاق الأرواح.. بتخريب الديار. الوحوش خير منهم، وأرحم منهم. هؤلاء لا يخشون خالقاً، ولا يرحمون مخلوقاً، ولا يرعون لأحد حرمة، ولا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة.

هذا الطغيان الشارونى الصهيونى المستكبر المتجبر يؤيده الأمريكان.. النفوذ الأمريكى... المال الأمريكى.. السلاح الأمريكى، بهذا السلاح تضرب إسرائيل إخواننا وتقتلهم.

وأمريكا لا أقول إنها ساكتة، لا، هى مؤيدة ومساندة، ومعضدة وشريكة فى كل ما يجرى. ما يجرى فى فلسطين تستطيع أن تقول: تفعله إسرائيل بمساندة أمريكا، أو تفعله أمريكا بمساندة إسرائيل، فليس هناك فرق بين هذا وهذا.

أمريكا هى فرعون هذا العصر، هذا الفرعون الذى علا فى الأرض كما قال الله عن فرعون القديم: ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [القصص: ٤]، هذه فرعونية العصر.

فرعون قال لقومه: ﴿ .. **أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ** ﴾ [النازعات: ٢٤] ﴿ .. **مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي** .. ﴾ [القصص: ٣٨]. وفرعون العصر وطاغوت العصر يقول

هذا لقومه، ويقول هذا للبشرية كلها: أنه الإله الأعظم.. أنه الرب الأعلى، على الجميع أن يطيعوه، وعلى الجميع أن ينحنوا له، وعلى الجميع أن يخروا راكعين له.

هذا ما يجرى فى فلسطين، فى غياب العالم، ووهن المسلمين، وعجز العرب، وتهالك السلطة الفلسطينية على إرضاء الأمريكان، فما يطلبه الأمريكان ينبغى أن يُجاب. هل يستطيع أحد أن يقول للأمريكان: لا؟ ولهذا ترى السلطة تسارع إذا حدثت عملية استشهادية - يدافع بها الفلسطينيون عن أنفسهم بعض الدفاع - وتدين هذه العملية التى قدم فيها إخوانهم أبناء فلسطين أرواحهم فداء فى سبيل الله، هذه العملية تُجرم عندهم.

هذا التهالك هو الذى أضعفنا.

يا أيها الإخوة: إن قضية فلسطين هى قضية الأمة كلها، لا يجوز لنا أن ننساها، لا ينبغى أن يشغلنا عنها شاغل. حتى ما يجرى فى العراق أيها الإخوة هو لخدمة الصهونية، هو لخدمة إسرائيل.

المستفيد الأول من وراء هذا كله هو إسرائيل، إضعاف العراق قوة لإسرائيل، تدمير أسلحة العراق خدمة لإسرائيل، كل ما يجرى هو لإسرائيل، فتش عن الصهيونية وراء الأحداث كلها ستجد أصابعهم الخفية وراء كثير من الأحداث.

واجباتنا نحو فلسطين:

ونحن علينا أن نقف وقفة الرجال، كثير من الإخوة والأبناء يسألوننى: وماذا بإمكاننا أن نفعل؟

والله نستطيع أن نفعل الكثير:

١ - أول ما نفعله: أن نصطحب نية الجهاد فى أنفسنا، حينما تُتاح لنا الفرصة ننطلق كالأسود لا نلوى على شىء، هذه النية مهمة جدا.

وقد يُثاب الإنسان ويحصل أجر المجاهدين بنيته. جاء فى الصحيحين أن النبى ﷺ قال لأصحابه وهو فى غزوة تبوك: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: يارسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: وهم

بالمدينة، حبسهم العذر»[1]. ﴿ **وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** ﴾ [التوبة: ٩٢]. لم يجدوا ركوباً، وليس معهم أموال يشترون بها مطية، هؤلاء لهم أجر المجاهدين[2].

انو الجهاد، اجعل الجهاد فى قلبك، إن لم تستطع بيدك فجاهد بقلبك، وذلك أضعف الإيمان.

٢ ـ الأمر الآخر أيها الإخوة: أن نظل مقاطعين للبضائع الإسرائيلية والأمريكية، وإذا دخل البريطانيون المعركة يجب أن نضم إلى القائمة البضائع البريطانية.

لا زال الكثيرون من الشعب البريطانى يعارضون، وقد قلت لهم عندما كنت فى (لندن): الكثيرون يطالبون بأن نقاطع بضائعكم، وعندنا امتحان، إذا دخلتم الحرب ستعلن مقاطعتكم فى كل مكان.

الآن على الأقل نقاطع البضائع الإسرائيلية والأمريكية. المأكولات والمشروبات والملبوسات والسيارات وغير هذه الأشياء لا يجوز لنا أن نستعملها. هذه الأشياء لا تظنوا أنها هينة، إنها على مستوى العالم الإسلامى لها أهميتها وتأثيرها، بعض المحلات أغلقت أبوابها، المتاجر الكبرى شعرت بخسارة هذا العام، الحسابات أظهرت خسارة عندهم.

لنصمم على المقاطعة حتى لو لم يخسروا، هذا واجبنا.. واجبنا أن لا نأكل من طعام هؤلاء. تأكل السم الهارى إذا أكلت من أطعمتهم؟! تشرب السم الهارى إذا شربت من مشروباتهم؟! لا يا أخى، امتنع عن هذا، هذا أقل ما يجب أن نقدمه: أن نقاطع بضائعهم ونقاطع ثقافاتهم ونقاطع كل ما يمكننا مقاطعته.

---

(١) رواه البخارى فى المغازى (٤٤٢٣) عن أنس، ومسلم فى الإمارة (١٩١١) عن جابر. وهذا نص البخارى.

(٢) ولذلك جاء فى رواية لمسلم: «إلا شركوكم فى الأجر» [كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر].

٣ – وعلينا أن نبذل لإخواننا ما نستطيع، الأمريكان يريدون أن يقطعوا عن إخواننا كل عون، من أجل هذا حاربوا الجمعيات الخيرية كلها، ولا يريدون أن يبقى منفذ يصل منه شيء إلى إخواننا في فلسطين. يريدون أن يركعوهم.. أن يجوعوهم.. أن يقتلوهم جوعاً، حتى (ائتلاف الخير) يريدون أن يوقفوه.

أنا أوصى الإخوة المسلمين جميعا أن يساعدوا بكل سبيل.. بما يستطيعون من مال. فإذا لم نستطع أن نجاهد بأنفسنا فعلى الأقل نجاهد بأموالنا ولو بالقليل، القليل على القليل كثير إن شاء الله.

٤ – بعد ذلك علينا أن نجاهد بالدعاء إلى الله والتضرع إلى الله. سلاحنا الذى لا يفل: أن بيننا وبين السماء صلة، الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ ..**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** .. ﴾ [غافر: ٦٠] ، ﴿**إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ** .. ﴾ [البقرة: ١٨٦]، خصوصاً في ساعات الكرب.. في ساعات الشدة ليس لنا إلا الله، نفرع بابه، ونبسط أيدينا إليه ونقول: ياحى ياقيوم برحمتك نستغيث، نشكو إليك ضعف قوتنا وقلة حيلتنا وهواننا على الناس يا أرحم الراحمين.

هذا سلاح المؤمنين.

أوصى الإخوة أئمة المساجد وخطباء المساجد أن يدعوا بقنوت النوازل بعد الركوع الأخير من الصلوات خصوصاً الصلوات الجهرية: صلاة الفجر والمغرب والعشاء، أن يدعوا الله سبحانه وتعالى أن يؤيد إخوانهم بنصر من عنده، وأن يفتح لهم فتحاً مبينا، وأن يهديهم صراطاً مستقيما، وأن يذل أعداءهم ويخزيهم وينصرهم عليهم، ويشفى صدور قوم مؤمنين.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجيب دعاءنا، وأن يغيث لهفتنا، وأن يكشف الغمة عن هذه الأمة، وأن يرد كيد الكائدين في نحرهم، اللهم آمين.

ادعو الله تعالى يستجب لكم.

* * *

(١٦)
فرنسا وقضية الحجاب [١]

● **الخطبة الأولى:**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

الإسلام دين انتشارى:

الأسلام دعوة عالمية، جاء للناس كافة، عربهم وعجمهم، شرقيهم وغربيهم، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال عز وجل: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿ . . **إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [يوسف: ١٠٤]، ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** . . ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فلا عجب أن تضيء أنوار الإسلام في المشرق والمغرب، وأن نرى المسلمين فى كل مكان من أرض الله، ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** . . ﴾ [البقرة: ١١٥].

وجد المسلمون فى قارات الدنيا الست، بعضهم من أهل البلاد الأصليين، وبعضهم ممن هاجر إليها، وقد أصبحت الهجرة مفتوحة فى أنحاء العالم، وأصبح العالم متقاربا، حتى زعموه قرية من القرى بعد ثورة الاتصالات، فلم يعد هناك حجاب بين قُطْر وآخر، وإنما أصبح الناس يسيرون من مكان إلى مكان، وينتقلون من دولة إلى دولة ، ومن قُطْر إلى قُطْر، ولذلك لا عجب أن تجد الإسلام فى أفريقيا وآسيا، وأن تجده فى أوروبا وأمريكا، وأن تجده في أستراليا ونيوزيلندا، هذا هو شأن دين انتشارى مثل هذا الدين، الذى أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون.

الأقليات المسلمة فى العالم:

ولذلك لا عجب أن نرى عشرات الملايين من المسلمين فى أوروبا، بعضهم من أهل البلاد الأصليين، وبعضهم مهاجرين إليها، وبعضهم تجنسوا بجنسيتها،

---

(١) ألقيت فى مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة فى ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٤٢٤هـ الموافق ١٦ من ديسمبر سنة ٢٠٠٣م.

هناك مسلمون فى أوروبا الشرقية من أهل تلك البلاد: فى البوسنة والهرسك، وألبانيا، وكوسوفو، وبلغاريا، وغيرها، ملايين. وهناك مسلمون فى أوروبا الغربية جاءوا إليها منذ القرن الماضى وقبل القرن الماضى، وتجنسوا بجنسيتها. وهناك مسلمون قَدموا بعد ذلك بأسباب شتى: فى بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وفى كل البلاد الأوروبية.

وأعظم أقلية إسلامية وأكثرها عدداً هم المسلمون فى فرنسا، هناك نحو خمسة أو ستة ملايين من المسلمين يعيشون فى فرنسا، ونصفهم - تقريبا - مجنسون بالجنسية الفرنسية، بعضهم فرنسيون فى الأصل، وبعضهم هاجروا من بلاد شمال أفريقيا، أو من السنغال، أو غيرها من البلاد التى كانت تستعمرها فرنسا، حملوا الجنسية الفرنسية وأصبحوا مواطنين فرنسيين، لهم كل الحقوق التى للمواطن الفرنسى، وبعضهم يعيشون فى إقامة مشروعة.

هؤلاء لهم حق أن يمارسوا دينهم، كما يمارس غيرهم دينهم، هذا ما تقتضيه الحضارة، وما يقتضيه ميثاق حقوق الإنسان، ومواثيق الأمم المتحدة، وما تقتضيه الدساتير الحديثة التى توفر الحرية لكل مواطن، ولكل مقيم على أرض الوطن، وهذا ما تفخر به الحضارة الحديثة: أنها حضارة الحريات وحقوق الإنسان، وبخاصة ما تفتخر به فرنسا، فرنسا التى تعد نفسها أم الحريات، وتعد ثورتها أم الثورات، وتقول: نحن بلد الحضارة والنور والانفتاح، هذا ما تقوله فرنسا التى انطلقت ثورتها فى أواخر القرن الثامن عشر لتنادى بمبادىء ثلاثة: الحرية، والمساواة، والإخاء.

ولذلك عجبنا من موقف فرنسا فى السنوات الأخيرة من قضية اتخذت منها أمراً إدًّا، وضخمتها تضخيما كبيرا؛ قضية المسلمة التى تريد أن ترتدى الحجاب، طاعة لأمر ربها، والتزاماً بواجبات دينها.

صفحات من تاريخنا مع فرنسا:

منذ تسع سنوات، ألقيت خطبة من فوق هذا المنبر عن هذه القضية، حينما حضرت مؤتمراً للمستشرقين فى فرنسا فى أواخر سنة ١٩٩٤م وناقشت بعض الفرنسيين فى قضية الحجاب مناقشة طويلة، وقلت لهم: إننا نحن المسلمين

نريد أن نتعامل مع فرنسا معاملة الند للند، وأن ننسى ما كان بيننا وبين فرنسا فى الماضى البعيد، والماضى القريب، فقد كان للمسلمين مع فرنسا تاريخ أى تاريخ، مذا القرن الأول وصل المسلمون إلى أوروبا، وفتحوا الأندلس، ووصل الفاتحون إلى جنوب فرنسا، وكادت الجيوش الإسلامية تتوغل، لولا معركة قدّر الله فيها أن ينهزم المسلمون بقيادة البطل الإسلامى: عبد الرحمن الغافقى، المعركة التى يسمونها معركة (بواتييه)، والتى قال أحد مؤرخيهم: لولا انتصارنا فى هذه المعركة كنّا نرسف تحت ظلام الإسلام إلى اليوم!! والإسلام ليس ظلاما، الإسلام نور، وكتابه نور، وشريعته نور، ونبيه نور ﴿.. **قَدْ جاءَكُمْ رسولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثيرا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ منَ الْكتَاب وَيَعْفُو عَن كَثيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّه نُورٌ وَكتَابٌ مُّبينٌ* يَهْدي به اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِه وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

صفحة الحروب الصليبية:

ثم كان لنا تاريخ مع فرنسا فى الحروب الصليبية، الحروب التى سماها مؤرخونا: حروب الفرنجة، وسماها الغربيون: الحروب الصليبية. لأنهم رفعوا الصليب شعاراً، وكان لفرنسا فيها دور كبير فى هذه الحروب، كان لهم دور فى فلسطين، وكان لهم دور فى مصر، وقد جاء ملكهم - الذى كان يعتبر أحد القديسين - الملك لويس التاسع، واصطدم بالمسلمين فى مصر، وأَسَره المسلمون فى (المنصورة)، ووضعوه فى دار شهيرة، اسمها: دار ابن لقمان، حتى قَبِل المسلمون أن يفكوا أسره، وأن يقبلوا فدية كبيرة ليعود الملك إلى بلاده.

وبعد ذلك حينما أراد الفرنسيون أن يهددوا المصريين فى عهد خلفاء صلاح الدين الأيوبى، فى عهد الملك الصالح أيوب نجم الدين أرسل إليه الشاعر ابن مطروح يقول:

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال صدق من قئول فصيح

دار ابن لقمان على حالها ... والقَيْد باقٍ والطواشى صَبيح[1]

---

(١) انظر بقية القصيدة فى كتاب (تراجم إسلامية شرقية وغربية) لمحمد عبد الله عنان. طبعة مكتبة الأنجلو بمصر.

قال له: نحن حاضرون وجاهزون، دار ابن لقمان منتظرة، والقيود التى قيد بها ملككم، والطواشى (المملوكى الحارس) كما هو باق.. هكذا كنا.

تاريخ فرنسا الاستعمارى:

ونسينا هذا التاريخ، ثم جاء تاريخ آخر دخلت فيه فرنسا بلاد المسلمين مستعمرة، لسوريا، ولبنان، وقبل ذلك: الجزائر، والمغرب، وموريتانيا، والسنغال، وبلاد شتى فى أفريقيا، وكان آخر البلاد التى تحررت من نير الاستعمار الفرنسى هى الجزائر، التى خاضت معركة ضروسا طويلة المدى مع الاستعمار الفرنسى، وهو استعمار استيطانى، ليس استعماراً طارئاً، ينهب الأموال والثروات والخيرات، ثم يعود بعد حين إلى دياره، ولكنه استعمار استيطانى، استوطن الجزائر واعتبرها جزءا من فرنسا، وأراد أن يلغى هويتها، فألغى لغتها العربية ليحولها إلى الفرنسية، وأراد أن يلغى دينها الإسلامى، كثيراً ما رأيت فى الجزائر مساجد حوّلت إلى كنائس، أو حولت إلى متاحف، وظل هذا الاستعمار مائة وثلاثين عاماً، قاتل فيه الجزائريون منذ عهد الأمير عبد القادر، إلى عهد الثورة الجزائرية الأخيرة التى سقط فيها أكثر من مليون شهيد، وتحررت الجزائر من فرنسا، وأصبحت دولة مستقلة، كما أصبحنا دولاً مستقلة نتعامل مع فرنسا معاملة المستقل للمستقل.

فرنسا والحجاب:

وإن كنا نأخذ على فرنسا فى بعض الأوقات: انسياقها مع التيار المعادى للإسلام، ولكن - والحق تقول - فى المدة الأخيرة كثيراً ما نوّهنا بالموقف الفرنسى من قضايانا العربية والإسلامية، فنحن نقول للمحسن: أحسنت، كما نقول للمسىء: أسأت.

حينما وقفت فرنسا من قضايانا العربية كقضية فلسطين، وقضية الحرب على العراق، وقفت موقفاً لم تكن فيه ذيلاً لأمريكا، وإنما وقفت موقفاً مستقلاً إيجابيا: أشدنا بالموقف الفرنسى، ورحبنا بالموقف الفرنسى.

ولكن هاهى فرنسا اليوم تتخذ موقفاً من المسلمين فى ديارها يغضب مسلمى العالم كله، لا تبالى فرنسا أن تغضب ستين بلداً إسلامياً تضمهم منظمة

المؤتمر الإسلامى، وتريد أن تُغير على الفتيات المسلمات، سبحان الله! هناك لجنة حكماء شكلها الرئيس شيراك لتبحث فى أمر الرموز الدينية وهذه الأشياء، وأصدرت توصيتها بأنه: يجب منع كل الرموز الدينية، ومنها: الحجاب الإسلامى، حفاظاً على الوجه العلمانى لفرنسا، وتأييداً للفصل الكامل بين الدين والدولة!

وأى دخل للدولة فى قضية الحجاب، هذا أمر شخصى بحت يتعلق بحرية الإنسان واختياره، هل هذا سيؤثر على الدولة الفرنسية؟ عجب كل العجب أن يقال: إن ارتداء الحجاب - وكلمة الحجاب أصبحت تطلق عرفاً على الخمار، أو ما يسمى (الإيشارب) أو (الطرحة) التى توضع فوق الرأس - ضد علمانية الدولة!

الحجاب أمر من الله واجب التنفيذ:

إن الحجاب أمْر أمَر به الله سبحانه وتعالى، وليس من اجتهاد الفقهاء، ولا من ابتداع المسلمين، هذا أمر قرآنى، يقول الله تعالى: ﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ**..﴾ [النور: ٣١] يضربن بخمار الرأس على الجيب، وهو فتحة الصدر، المراد: أن يغطى هذا الخمار الرأس والنَّحْر والعنق، هذا أمر أجمع عليه المسلمون بكل مذاهبهم؛ المذاهب الأربعة، والمذاهب الثمانية، والمذاهب التى انقرضت، مذاهب الأوزاعى والثورى والطبرى، وغير المذاهب: فقه الصحابة والتابعين والأتباع، وكل الفرق الإسلامية، والمدارس الإسلامية، كلها أجمعت على أن الخمار واجب، وفرض دينى، أمر به الله ورسوله، وهذا إجماع نظرى ارتبط بالتطبيق العملى خلال ثلاثة عشر قرناً، فى القرون الثلاثة عشر الماضية لم تُعْرَف مسلمة كشفت رأسها، بعد أن تبلغ، بل حتى قبل أن تبلغ، منذ أن تصبح فتاة تُشْتَهى تضرب الخمار عليها، رغبة فى الاحتشام، واستجابة لداعى الحياء، والحياء من الإيمان، وهو خير كله، كما قال رسول الله ﷺ، هذا أمر لا شك فيه.

هل الجماعات الإسلامية وراء الحجاب؟

لم تفكر مسلمة في التمرد على أمر الله هذا، إلا منذ دخل الاستعمار بلاد المسلمين، ولذلك أعجب لإحدى الصحفيات التى قالت: إن الحجاب هذا بدعة اخترعتها الجماعات الإسلامية فى هذا العصر، لأنه لم يكن المسلمات يلبسن هذا الحجاب، ومنذ ظهرت الجماعات الإسلامية لبست النساء الحجاب. يعنى أنها تعتبر الفترة التى طغى فيها الاستعمار الغربى على المسلمين، وبدأ الناس يقلدون الغرب شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، فى الأفكار والمفاهيم والتقاليد: تعتبر هذه الفترة هى الأصل، مع أنها فترة استثنائية فى تاريخ الأمة. الجماعات الإسلامية لم تفعل شيئاً إلا أنها أيقظت المسلمين، وحركتهم ليلتزموا بدينهم، فكانت الصحوة الإسلامية المعاصرة، التى ردت الناس إلى ربهم ودينهم، فأصبح الناس يشعرون أنهم مسلمون، وبدأت المرأة المسلمة تشعر بأنها مسلمة، وأنها غير المرأة الغربية، وأن عليها واجباً أمرها الله به أن تغطى رأسها.

هذا هو نضح الصحوة الإسلامية، عادت بالمرأة إلى الأصل. وهذا أمر نسائى بحت، حركة الحجاب بين المسلمات: حركة نسائية طَوْعية اختيارية، لم يُلزِم بها أب ولا زوج، بل كثيراً ما رأيت بعض الأمهات ينهين بناتهن عن التزام الحجاب، ورأيت بعض الأزواج ينهين زوجاتهم عن الحجاب، وكثيراً من الزوجات يتخاصمن مع أزواجهن من أجل هذا، هى حركة نسائية تتعلق بإرادة المرأة المسلمة نفسها، وهذا ما حدث فى فرنسا، وما حدث فى بلاد أوروبية مختلفة، فلماذا يمنعون المرأة؟

أيها الفرنسيون: أليست حضارتكم وثورتكم هى التى نادت وتنادى بحق الإنسان فى أن يلبس ما يشاء، ويتصرف فى خاصة شؤونه كما يشاء، والتى تقرر الحرية الشخصية، والحرية الدينية؟! ثورة الحرية والمساواة، تضغط على النساء وتقهرهن على ما لا يردن، هذا ضد مبدأين أساسيين من مبادىء الحرية: الحرية الشخصية، والحرية الدينية، الحرية الشخصية فى أن الإنسان يلبس ما يشاء، وهذه من الحريات المدنية الأساسية، واحدة تلبس (جابونيز) وواحدة تلبس طويلا، وواحدة تلبس قصيراً، لا أحد يتدخل فى هذا، لماذا تتدخلون فى المرأة التى تريد أن تحتشم؟! هذا حقها المحض، وهو ثمرة حريتها الشخصية.

الحجاب من الحرية الدينية للإنسان:

ثم هذا من الحرية الدينية، المقررة والمصونة فى كل الدساتير الحديثة ومواثيق حقوق الإنسان. الإنسان حر فى أن يعتنق من الأديان ما يشاء، وأن يلتزم بدينه، وبواجبات دينه، بل هذا أكثر من كونه مجرد حرية، لأن الحرية فى الحقيقة تتعلق بالمباحات أى بالأشياء التى يجوز للإنسان أن يفعلها ويجوز له أن يتركها، أما الحجاب فلا يجوز للمسلمة الملتزمة أن تتركه، لأن الله أمرها به، فكيف تجبرون المسلمة على أن تفعل شيئا يخالف أمر ربها؟!

ولذلك نقول: هذا ضد الحرية، وضد المساواة، لأن معنى هذا: أنكم تضطهدون المسلمة الملتزمة بالدين، التى تريد أن ترضى ربها بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، تقولون لها: لا حق لك فى أن تتدينى، فأنتَ إذن تعطى الملحدة واللادينية حق أن تفعل ما تشاء ولا تعطى للمتدينة هذا الحق، أليست هذه تفرقة؟ أين المساواة التى تزعمونها إذن؟! الإنسانة المؤمنة بالله، الملتزمة بأحكامه وتعاليمه، لا تستطيع أن تمارس هذا الحق، على حين تستطيع الملحدة والمتحللة أن تفعل كل ما تريد، دون أن يمنعها أحد! فأين المساواة، وأين التسامح الدينى؟! تزعمون أنكم أهل التسامح، أين التسامح إذا فرضت علىّ ما لا أريد؟! إذا فرضت علىّ أن أخالف أمر ربى!

وقد قال تعالى: ﴿ .. **وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ** .. ﴾ [النور: ٣١]، هذا أمر، ﴿ **وَلْيَضْرِبْنَ** ﴾ هذه اللام لام الأمر، والأمر القرآنى للوجوب المحتم اللازم، كما قال تعالى: ﴿ .. **مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ** .. ﴾، أى أن أمر الله لابد أن يجاب ويطاع، فكيف تجبر المسلمة على أن تخالف دينها وتترك أمر ربها؟ أنا أعجب من حضارة يباهون بها وبتسامحها تتعصب ضد إنسان، لأنه يعمل ما يأمره به دينه دون أن يضر بذلك أحدا، ما شأنك أنت؟ واحدة تلبس طرحة على رأسها، ماذا يضيرك أنت؟ المصريون لهم نكتة يقولون فيها: (واحد شايل ذقنه - مطلق لحيته - أنت زعلان ليه؟)، واحدة تضع طرحة على رأسها، ماذا يؤذيك من هذا؟

الحجاب بين الفرضية والرمزية:

ومن المهم هنا: أن نصحح خطأ كبيراً شائعاً، فمن أكبر الأخطاء الشائعة: أن يقال عن الحجاب: إنه رمز دينى! وهذا عجب من العجب، الحجاب ليس رمزاً دينياً، ولا يخطر ببال من تلبس الحجاب: أنها تريد أن تعبر عن دينها، وأنها تعلن أنها مسلمة، بدليل أن المسلمة فى قلب بلاد المسلمين تعمل هذا، وليست فى حاجة إلى الإعلان.

الحجاب ليس رمزاً، الرمز الدينى هو ما ليس له وظيفة إلا الإعلان عن انتماء صاحبه لهذا الدين، مثل امرأة تلبس صليبا على عنقها، هذا الصليب ليس له فائدة - فيما يظهر لنا - إلا أنها تريد أن تقول: أنا نصرانية مسيحية. اليهودى الذى يلبس قلنسوة تغطى قطعة من رأسه، هذه ليست لها وظيفة، لأنه لو أراد أن يغطى رأسه لغطى رأسه كله، هذا رمز دينى. أما الحجاب فليس رمزاً، ولكن له وظيفة، وهو أنه يستر شعر المرأة، ويستر نحرها وعنقها، هذه وظيفة فتسميته رمزاً تسمية خاطئة لا تدل على عمق فى الفكر، أو تأمل حقيقى فى هذا الموضوع، وبعض المسلمين تأثروا بهذا الكلام، وقالوا: هو رمز دينى، وهذا خطأ، فهو ليس رمزاً دينياً بحال، هذا أمر.

ثم إن الرمز الدينى، يكون الإنسان حرا فيه ومختارا، يعنى يستطيع أن يضع الصليب على صدره، أو تضع الصليب على صدرها، ويقدر على أن لا يفعل، لكن هذا الحجاب ليس أمراً اختيارياً بالنسبة للمسلمة، هذا أمْر أمر الله تعالى به فليس لمسلمة الاختيار فى هذا، هى مجبورة على أن تمتثل أمر الله عز وجل، ولذلك لا يقال إن الحجاب رمز دينى.

على أن الرمز الدينى لا يختلف باختلاف الأحوال والأوضاع، ولكن الحجاب يختلف، فالمرأة تلبسه أمام الرجال الأجانب عنها، ولا تلتزم به أمام النساء، ولا أمام أبيها وأخيها، وعمها وخالها، وأبناء إخوانها وأخواتها، وسائر محارمها، فهل يوجد مثل هذه التفرقة فى أى رمز من الرموز الدينية؟!

وحتى لو كان هناك رموز دينية، وكان الحجاب منها. فالواقع أنهم لم يمنعوا غير الحجاب! ففى فرنسا قالوا: سنمنع الصليب الكبير، ما معنى الصليب

الكبير؟ وهل التى تلبس الصليب تلبس صليبا يزن نصف كيلو؟! هو صليب صغير فى العادة، والصليب الصغير لا يمنع! إذن يكون الأمر منصبًا على منع الحجاب الإسلامى! هذا هو المقصود، والدليل: أنه لم تثر القضية إلا بعد أن أصبحت قضية الحجاب مثارة فى كل مكان؛ حينما وجدت فتاتان أبوهما يهودى وصممتا - بعد أن أسلمتا - على ارتداء الحجاب، وأبوهما يدافع عنهما وعن حقهما فى لبس الحجاب، فثارت هذه القضية ووصلت إلى ما وصلت إليه.

صور من سماحة الإسلام مع الآخر:

نحن - المسلمين - متسامحون، نحن نتسامح فيما هو أكثر من ذلك، نحن نطالب الفرنسيين ونطالب الحضارة الغربية: أن تسامحنا فيما نراه أمراً واجباً دينياً، ولكننا - نحن المسلمين - نسامح فيما هو أكثر من هذا وأوسع دائرة، إننا نسامح فيما يراه الشخص مباحاً فى أمر دينه، ولا نضيق عليه فيه، وإن كنا نحن نراه حراماً. نحن نرى: أن أكل لحم الخنزير حرام، ولكن لا نمنع المسيحى من أن يأكل لحم الخنزير، وأن يربى الخنزير فى بيته، أو فى مزارع عنده، هذا حقه، لا نريد أن نضيق عليه فى أمر مباح عنده، مع أن الأمر المباح يستطيع الإنسان أن يتركه، فليس من الواجبات الدينية أن يأكل المسيحى لحم الخنزير، هو مباح له، ولكن الإسلام يقول له: أنت حر فيما أبيح لك.

وشرب الخمر مباح عند المسيحيين، ولكنه محرّم عندنا، فالخمر أم الخبائث، ومفتاح الشرور، وهى من كبائر الإثم، ومع هذا لا نضيق على المسيحيين فى أن يشربوا خمرًا، بشرط: أن يشربوها فى مناطقهم الخاصة، ولا يبيعوها للمسلمين، ولا يعلنوا بها فى المناطق الإسلامية، هذه هى سماحة الإسلام.

بل مذهب الإمام أبى حنيفة: أن المسلم لو كسر دنًّا من خمر لذمىّ نصرانى: فإن عليه أن يغرم قيمته، لأنه مال متقوّم عند صاحبه، هكذا نتسامح إلى هذا الحد. فأين هذا التسامح مما نراه فى فرنسا الآن؟

التنوع الثقافى فى حضارتنا:

إن حضارتنا الإسلامية فى أيام بلوغها الذروة، فى أيام عطائها المدرار كانت حضارة متسامحة: اتسعت لكل الأديان، ولكل الثقافات، آمنت بظاهرة التنوع،

شارك فى بناء الحضارة الإسلامية مسلمون ومسيحيون ويهود ومجوس، ومن كل الملل والنحل، شاركوا فى الحضارة الإسلامية، ووسعتهم الحضارة الإسلامية، الحياة مبنية على التنوع، الكون قائم على التنوع، مختلف ألوانه، هذا الكون فيه أشياء كثيرة مختلف ألوانها أى: أنواعها، فلماذا يريد الفرنسيون أن يمنعوا ظاهرة التنوع والتعدد؟ هذه ظاهرة رجعية. أن تحاول أن يكون هناك لون واحد، ودين واحد، وثقافة واحدة، وزى واحد، هذا هو التأخر والتخلف، ليست هذه حضارة، الحضارة: أن تسع الآخرين.

هذا للأسف ما وجدناه عند فرنسا المتنورة، المتحضرة، المتمدنة، أم الثورات، وأم الحريات، تضيق بهؤلاء المسلمات!

نريد من فرنسا، ونريد من دول الغرب كلها: أن تتسع لمن يخالفها فى الدين، أو يخالفها فى العِرْق، أو يخالفها فى الثقافة، أما سياسة التطهير العرقى، أو التطهير الدينى، أو التطهير الثقافى، أو عدم السماح بأى مخالف، ومحاولة صهر المجتمع كله فى بوتقة واحدة، وفى طريقة واحدة، فهذا ما لا يقبل بحال من الأحوال.

لونان من العلمانية:

يقولون: نحن نحافظ على الوجه العلمانى لفرنسا! وأود أن أقول هنا: العلمانية نوعان: علمانية معتدلة، وعلمانية متطرفة، العلمانية المتطرفة رأيناها عند الماركسيين والشيوعيين، الذين لا يسمحون بأى دين، ولا بأى فلسفة مخالفة، وترى: أن (الدين أفيون الشعوب)، وينص دستورها على: أن (لا إله، والحياة مادة)!، والغربيون الذين كانوا يسمون أنفسهم العالم الحر، كانوا ينكرون هذا ويقاومونه ويحاربونه، وهذه هى العلمانية المتطرفة، فما بال الغربيين اليوم يتبنون هذه العلمانية؟!

وهناك علمانية معتدلة، لم هى معتدلة؟ إنها تقف من الدين موقف الحياد، يعنى هى لا تؤيد الدين ولا تعاديه، لا تقبله ولا ترفضه، ليس لها علاقة بالدين، الذى يريد أن يتدين فهو حر، ولكن الدولة لا تتدخل فى تأييد هذا الدين، ولا فى رفض هذا الدين. هذه هى العلمانية الحقيقية، لأنها إذا وقفت من الدين موقف

العداء معناها أنها فرقت بين المواطنين بعضهم وبعض، لأن من المواطنين من يتدين، ومنهم من لا يتدين، فإذا وقفت ضد المتدين فلم تسوّ بينهما.

خوف يتبعه مخاوف:

ونحن نحشى أنهم إذا قالوا اليوم: نريد أن نمنع التميز الدينى فى الزىّ، فنخاف مستقبلاً أن يقولوا: نمنع التميز الدينى فى العبادة. لماذا يتميز المسلمون بأن يكون لهم مساجد يصلون فيها؟ هذا نوع من الخلاف للسائد فى فرنسا، وإذا كان هناك من يشرب الخمر، ومن لا يشرب الخمر، فكيف نميز بينهما؟ هل يجب أن يشرب كل الناس الخمر؟! هناك من يدخن ومن لا يدخن، هناك من تحتشم ومن لا تحتشم، فيظل هناك فروق. إذا مر هذا الأمر ولم يعترض الناس أمكن أن يقولوا بعد ذلك: لماذا تمتنع عن الأكل والشرب فى رمضان، والناس كلهم من حولك يأكلون ويشربون؟ أعنى: أن هذه قضية فى غاية الخطورة، فإذا فتحنا هذا الباب فمعناه: أن يتدخل الناس فى الشؤون الشخصية للفرد، فى أخص الخصوصيات، وهذا لا يقبله أحد. وهو لا شك ضد حقوق الإنسان.

العلمانية المتطرفة:

نحن ننكر على فرنسا هذا الموقف، ونرى: أن هذا ردة عن تراث فرنسا، وعن موقفها من الحريات، ومن حقوق الإنسان، وأنه لا يليق بها هذا، وأنها بموقفها هذا تغضب المسلمين فى أنحاء الأرض، بعد أن صفقوا لها، ووقفوا منوهين بسياستها المستقلة عن أمريكا.

وإن مما يندى له الجبين، ومما ينقطع له نياط الفؤاد، وتتفتت من أجله الأكباد: أن فى بعض بلادنا الإسلامية من يفعل مثل فرنسا، وما هو أشد من فرنسا، لأن فرنسا تمنع هذا فى المدارس، أما فى بلاد إسلامية عربية معروفة فى شمال أفريقيا فنراها تمنع الحجاب فى المدارس والجامعات، وتمنع دخول المحجبة فى الوظائف الحكومية، ووظائف القطاع العام، وتمنعها من دخول المستشفيات، ولو للعلاج، أو الولادة، بل أصبحوا الآن يدفعون السائقين إلى أن لا يركبوا امرأة محجبة فى سيارة التاكسى، هذه بلاد إسلامية، ولذلك بعضهم يقولون: إذا كنتم لا تستطيعون أن تمنعوا هذا فى البلاد الإسلامية، فلماذا تريدونه أن يمنع

فى بلادنا؟! هذا أمر مؤسف! ولكن هذه البلاد معروفة بمعاداة الحريات، وبالتنكر لحقوق الإنسان، ولا نحب لفرنسا أن تكون مثلهم، ولا هى تحب أن تكون كذلك.

دور المسلمين نحو قضية الحجاب:

نحن أيها الإخوة ينبغى أن نقول لفرنسا: ما فعلتموه لا يرضى المسلمين فى أنحاء العالم، والمسلمون فى أنحاء العالم وقفوا معكم فى قضايا كثيرة، وأشادوا بكم، ونوهوا بمواقفكم، فلا تجلبوا عداوة المسلمين عليكم، كل من عنده استطاعة أن يبعث ببرقية إلى الرئيس الفرنسى ينبغى أن يفعل، وعلى الجهات الإسلامية، والجمعيات الإسلامية، والجامعات الإسلامية، وعلى المؤسسات الإسلامية المختلفة أن تفعل ذلك. لم أستطع أن أقول: وعلى حكام المسلمين أن يفعلوا ذلك، لأن بلاد المسلمين كلها لها عند فرنسا مصالح، ولفرنسا لها عندها مصالح، ولو قال حكام المسلمين كلمة واحدة: هذا لا يرضينا نحن المسلمين، والله لارتدعت فرنسا، ولكن لا أحد يهتم بأمر الإسلام ولا المسلمين! حتى قال أحد العلماء حينما سئل عن هذا الأمر، قال: هذا أمر داخلى، ولا علاقة لنا به، ولا يجوز لإنسان أن يتدخل فى أمر بلد آخر!!! نحن لا نتدخل، ولكن نقول: هذا ضد مبادئكم، وضد دستوركم، وضد حقوق الإنسان، ونقول: هذا يؤلمنا ويؤذينا ويعكر علاقتنا بكم، هذا هو الذى نريده.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يهيىء للمسلمين من أمرهم رشدا وأن يجعل يومهم خيراً من أمسهم ويجعل غدهم خيراً من يومهم إنه سميع قريب. أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم وادعوه يستجب لكم.

o الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

إلقاء القبض على صدام حسين:

نشرت الصحف، وبثت وكالات الإعلام نبأ اعتقال الرئيس العراقى السابق صدام حسين، وقد كنت فى مؤتمر فى مكة حينما سمعت هذا النبأ، وقلت: هذا أمر كان لابد أن يقع، ولا يمكن أن يظل الرجل مختفياً أبد الدهر، خصوصا: أن

من أقرب المقربين إليه من هو مستعد أن يبيعه ولو بثمن بخس، ومثل هؤلاء الذين لم يتربوا فى حضانة الإيمان مستعد أن يبيع صديقه بعرض يسير من الدنيا، فلهذا وشى به أقرب الناس إليه، وكان بجوارى فى هذا المؤتمر أحد كبار العلماء العراقيين من أهل السنة قلت له: أسمعت بنبأ اعتقال صدام؟ قال: نعم، سمعت وهذه نهاية كل ظالم، أما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾ [هود: ١٠٢]»[١].

قلت له: ولكن كنا نحب أن يكون ذلك على أيدى العراقيين لا على يد الأمريكيين، قال: وهل يسمح الأمريكيون للعراقيين أن يسقطوا طاغية؟ هل يسمحون للمسلمين فى أى بلد أن يسقطوا طاغية من طغاتهم؟ قلت له: لا والله، لا يسمحون، وما سمحوا بذلك فى بلد قط، سمحوا فى أوروبا الشرقية أن تثور الشعوب على طغاتها، شاوشيسكو وغيره، وأن يسقطوهم، ولكنهم لم يسمحوا بذلك فى البلاد الإسلامية التى كانت تحكمها الشيوعية، البلاد التى كانت منتمية إلى الاتحاد السوفيتى، أوزباكستان وطاجيكستان وكل هذه البلاد، أبقوا فيها الحكام الشيوعيين القدامى كما هم، ووفروا لهم الحماية اللازمة، ولم يسمحوا بثورة على هؤلاء الطغاة.

هم فعلاً لا يسمحون بأن يقوم الشعب العراقى ليسقط طاغيته، هم أيدوا صدام حسين حينما كان توجهه يخدم سياستهم، أمدوه بالسلاح، وبما يحتاج إليه حتى كوّن جيشه الذى حارب به جيرانه، ولكن حينما بدأ يختلف معهم تخلوا عنه، هم الذين أغروه بأن يغزو الكويت، حتى يقع فى المطب وفى الفخ، ثم بدأوا يحاربونه، ويؤلبون عليه، حينما بدأ يكون سلاحاً نووياً، وبدأ يكون خطراً على إسرائيل، هنا بدأوا يدركون خطورة هذا الرجل، وخطورة العراق. فمن أجل هذا حاربوه، لم يحاربوه من أجل سواد عيون الشعب العراقى، أو من أجل خاطر المعارضة العراقية.

---

(١) سبق تخريجه فى ص (٤٧).

لست صدَّاميًّا !:

أنا لا أحزن على صدام حسين، فلم أكن فى يوم من الأيام صدَّاميًّا، دعا صدام حسين العلماء، وذهب العلماء إلى العراق، وحضروا مؤتمراته من المشرق والمغرب، إلا عالمين لم يحضرا، ووضعا فى القائمة السوداء عنده: الشيخ أبو الحسن الندوى فى الهند، ويوسف القرضاوى فى قطر، هذان العالمان لم يستجيبا لدعوة صدام.

على كل حال نحن لا نريد أن نبكى على صدام، كما لا نريد أن نهلل للأمريكيين، لا نريد أن نطبل ونزمر لهم، وأن نسير فى ركاب المطبلين والمزمرين لهؤلاء، إنما نحن مع كل موقف حق، ونحن ضد كل ظالم سواء كان هذا الظالم عربياً أم عجمياً، شرقياً أم غربياً، نحن نرى أن نهاية الظالمين لابد أن تأتى قرب اليوم أو بعد، ﴿ . . **وما هي من الظَّالمين ببعيد** ﴾ [هود: ٨٣] ، ﴿ **وما ذلك على الله بعزيز** ﴾ [إبراهيم: ٢٠]، ﴿ **فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إنَّ في ذلك لآية لقوم يعلمون** ﴾ [النمل: ٥٢].

* * *